في المعجم التربويّ

الدكتور إبراهيم السامرّائيّ(*)

أقول: هذا شيء يسير من مجموع استثريته فجمعته ليكون صنعةً معجميّة في «المصطلح التربويّ». وقد رأيت أنَّ من الضروريّ أن أبدأ بمصطلحَي «المدرسة والجامعة» فقلت:

ما يكون لي أن أتجاوز حدّي فأكتب في «المدرسة والجامعة» وأصحابنا علماء التربية ملء السمع والبصر، وليس لي أن أقتحم حَرَم التاريخ وشيوخ «الأثر» حماة بررة قد حبّروا الدروس ونشروا الكتب فيما ندعوه في عصرنا «التربية الإسلاميّة».

ولكنّي سأقف على «المدرسة والجامعة» وما هو منهما في لغتنا السمحة العربيّة، ثمّ قد يكون لي أن أستعير من أصحابنا المؤرِّخين والتربويّين شيئًا أرمّ به هذا البناء الذي سأسعى إلى انتقاء حجارته ورصفها ما أعانت صنعتي على ذلك. ولا تحسبنّي أطلت عليك - أخي القارئ - في هذه «المقدّمة»، فإنّي أراك عجولًا آمنتَ أنَّ العصر يفرض علينا العجلة، فكلّنا يسعى، وليتني فزت بقليل من صبرك، لأبسط لك ما لديَّ قبل أن تقول: «جعجعة» ولا أرى طِحنًا.

فتّشت عن أصول «المدرسة» فلم أجدها بهذا الاسم إلّا في العصور العبّاسيّة المتأخّرة. غير أنَّ «المدرسة» في الحقيقة وجدت منذ العصور

(*) عضو مجمع اللغة العربيّة الأردنيّ.

المتقدّمة الإسلاميّة، فقد كان «المسجد»، وهو البيت الذي تقام فيه الصلوات، معهد الدرس يقصده طلّاب العلم. وكان هؤلاء يدرسون في المسجد العلوم التي تتّصل بالقرآن والحديث وسائر علوم العربيّة، ثمّ اتّسعت دائرة العلم فشملت علوم الدنيا. وقد أدرك هذه الحقيقة المستشرق «وينسنك»[1] الذي أحسن كلّ الإحسان في تحريره مادّة «مسجد» في دائرة المعارف الإسلاميّة. لقد أفاض هذا العالم الجليل في بسط حقيقة «المسجد» وما يتّصل به من شؤون دينيّة ودنيويّة، وقد شغلت مادّة «مدرسة» قدرًا كافيًا ممّا يتّصل بالمسجد.

لقد عرفت العربيّة مادّة «الدرس» فشغلت جانبًا من أدبنا طوال العصور. ولنقرأ قوله تعالى:

﴿وكذلك نصرّف الآيات وليقولوا درسْتَ ولنبيّنه لقوم يعلمون﴾ ١٠٥ سورة الأنعام.

﴿ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلّا الحقّ ودرسوا ما فيه﴾ ١٦٩ سورة الأعراف.

﴿كونوا ربّانيّين بما كنتم تعلّمون الكتاب وبما كنتم تدرسون﴾ ٧٩ سورة آل عمران.

﴿أم لكم كتاب فيه تدرسون﴾ ٣٧ سورة القلم.

﴿وما آتيناهم من كتب يدرسونها﴾ ٤٤ سورة سبأ.

﴿أن تقولوا إنّما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنّا عن دراستهم لغافلين﴾ ١٠٦ سورة الأنعام.

وقرأ ابن عبّاس: «دارست» في قوله تعالى «درست» من سورة الأنعام، وقد فسّرها بمعنى: قرأت على اليهود وقرأوا عليك.

أقول: ومن هنا ذهب مَن ذهب إلى أنّ «المدرسة» من حيث كونها

---

(١) أقول: إنّ ما حرّره Wensinck في دائرة المعارف الإسلاميّة شاهد على أصالة هذا الدرس وقرّته، وإخلاص هؤلاء الأعاجم في توجّههم إلى معارفنا الإسلاميّة. لقد أشار هذا إلى وجود «المدراش» عند اليهود وراجع في ذلك: *Jewish Elephantine Papyri* (ed. Sachau).

بيت علم، قد جرى العرب في صوغها على ما عند اليهود. عرف اليهود «مدراش»، وهو بيت الدرس בֵּית מִדְרָשׁ، وهذا «المدراش» يعني في العبرانيّة الدرس أو الدراسة التي تنصرف إلى الكتب المقدّسة. ثمّ كان عندهم «بيت مدراش» בֵּית מִדְרָשׁ بمعنى «مدرسة» أو «بيت الدرس»، وكان عندهم בֵּית מִדְרָשׁוֹת أي «مدرسة».

أقول: إنّ «المدرسة» اشتقاق عربيّ سليم، وكون «مدراش» لدى العبرانيّين لا يعني ضرورة أنّ «مدرسة» من محاكاة العرب للكلمة العبرانيّة.

وجاء في الحديث الشريف «تدارسوا القرآن»[٢] أي يدرسه بعضكم على بعض. ومن هنا عرف المسلمون «المدراس» وهو البيت الذي يدرس فيه القرآن. و«المدراس» في الجاهليّة البيت الذي يدرس فيه اللبن.

ولنبسط الكلام في مادّة «درس» في أصول العربيّة لنخلص منها إلى شيء مفيد فنقول: إنّ للعربيّة في هذه المادّة ثلاثة مسارات:

(١) درس الشيء دروسًا، ودَرَسَته الريح، بمعنى زال وعفا. ومنه: درس الرسم والأثر، أي عفا، ومنه قيل للثوب الخَلَق «دَرِيس»، و«الدَّرْس» هو الطريق الخفيّ. و«الدِّرْسان» هي الخُلْقان، واحدها: دِرْس.
أقول: وهذا المسار يتّجه إلى معنى العَفاء والزوال.

(٢) و«دَرَسَ» الطعام[٣] يدرُسه درسًا بمعنى داسه، والكلمة يمانيّة في أصلها[٤]. و«الدرّاس» هو «الديّاس» بلغة أهل الشام.
و«دَرَس» الناقةَ يدرُسها بمعنى راضها.

---

(٢) ابن الأثير، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادّة (درس).
(٣) أقول: «الطعام» في هذا الشاهد يعني ما كان حبًّا كالقمح والشعير والأرزّ ونحو ذلك. وما زالت هذه الكلمة معروفة بهذه الدلالة لدى الفلّاحين وغيرهم في جنوب العراق ولبنان.
(٤) أقول: إنّ «الدراسة» «الدرس» بمعنى الديّاس والدياسة للسنابل التي تكدّس فتدوسها الدواب لفصل الحبّ عن التبن، من المواد اللغويّة الخاصّة بالفلّاحة التي يتطلّب عليها الأصول اليمانيّة القديمة، ثمّ شاعت في العربيّة فعرفها العرب في ديارهم المختلفة.

(٣) و«درستُ الكتاب» أدرسه درسًا، أي ذلّلته بكثرة القراءة حتّى خفّ عليَّ حفظه. قال كعب:

وفي الجلم إدهان، وفي العفو دُرسةٌ ... وفي الصدق منجاة من الشرّ فاصدُقِ

و«الإدهان» هو المذلّة، و«الدُّرْسة» هي الرياضة.

و«درس» الكتاب درسًا ودراسةً. وقال أهل اللغة في قولهم هذا: كأنَّ «الكتاب» عانده حتّى انقاد لحفظه، ومن هنا اعتمدوا على قول ابن عبّاس في «درستَ» من قوله تعالى في سورة الأنعام التي أثبتناها.

أخلص من إشارتي إلى هذه المسارات الثلاثة إلى أنَّ مادّة «درس» تدلّ على عمل فيه مشقّة وكدّ شديد. ومن هنا كان المسار الأوّل الصحيح بمعنى المادّة في أصل الوضع، فدراسة سنابل القمح وسائر الحبّ يقتضي هذا الجهد، وهو بمعنى «الدَّوس» سواء بسواء. ثمّ تحوَّلت الكلمة إلى مسار آخر وهو «درس الكتاب». وهذا الدرس يتطلّب الجهد الشاقّ، ومن أجل ذلك لمح أهل اللغة هذا التحوّل من الأصل إلى «درس» الكتاب، فقالوا: كأنَّ الكتاب عانده ونفر عنه، فاقتضاه ضربًا من رياضة الفكر في حفظه واستيعابه.

وسنقول: كيف الأمر في المسار الأوَّل وهو:

دَرَس الشيء دروسًا، ودَرَسَته الريح بمعنى زال وعفا؟

والجواب: إنَّ دروس الشيء كالأثر والطلل والبناء ونحو هذا يتطلّب العمل الشاقّ الذي تقوم به الرياح وحوادث الزمان في محو الأثر وإزالته.

ومن هنا كان الجامع بين هذه المسارات الدلاليّة واحدًا هو الجهد والجدّ والكدّ.

وإذا كنّا وصلنا إلى هذا، فلا بدّ أن نتحرّى الأصل الجامع بين «الدرس» و«الدوس»، وهما بمعنى، فأين يكون هذا الأصل؟

لا بدّ لي أن أجده في المضاعف «دسّ»، و«الدَّسّ» معروف، وهو

الإخفاء والدفن بشيء من جهد وإعنات.

وقد درجت العربيّة على الإفادة من المضاعف في فكّ إدغامه والتعويض من أحد المدغَمين بالحرف «راء»، ومن هذا «الأسّ» واليمزة مثلّثة، وهو الأساس وأصل كلّ شيء، وفكّ إدغام السين وعوّض من الأوّل راءً فيقولوا «الإرس» بالكسر وهو الأصل، وأكثر ما ينصرف للطيّب من الأصل، و«الإرّيس» هو الأمير.

ومثل هذا «الفَرْد» والمعنى معروف، وهو من «الفدّ» بالدال بمعنى «الفرد». ولذلك قالوا: «فدّان» للآلة التي يحرث بها لأنّها محتاجة إلى دابّتين يجرّانها في الحراثة، وكلّ منهما «فدّ».

وقد هُجر «الفدّ» في الاستعمال، وحلّ محلّه ما تولّد منه بالتعويض وهو «فرد». قلت: هُجر «الفدّ» في الاستعمال، ولكنّه بقي معروفًا في «الفذّ» بإبدال الذال من الدال، ومعنى «الفذّ» هو الوحيد، والكلمة سائرة معروفة.

وعلى هذا أستطيع أن أقرّر: إنّ مادّة «درس» جاءت من المضاعف «درّ»، وقد تجد غضاضة فيك أن تطمئنّ إلى أنّ «الدرس» من «الدرّ»، وهما بمعنًى، لما يتطلّبان من جهد وإعنات، وأنا أقول لك: إنّ التحوّل في العربيّة بالتعويض أو بالإبدال من الوسائل التي اتّبعتها اللغة في تكثير المعاني وإحداث الفروق الدلاليّة في الموادّ المتقاربة.

وإذا كان أحد المدغَمين من «الدرّ» قد أبدل به الراء فصار «درس»، فقد يبدل به الواو فيتولّد «دَوْس» وهو بمعناه أيضًا، ومثل هذا التحوّل والإبدال ما يكون في «الضرّ» الذي هو الضرر، و«الضير» الذي هو بمعناه، ومثل هذا كثير في العربيّة.

كأنّي بالقارئ قد ضاق صدره ممّا دعوته إلى مشاركتي في تحمّل أعباء هذه السمحة العربيّة، ولكنّي سأسعى إليه فأشرح صدره وأدعوه معي في النظر إلى «الجامعة» والوقوف على ما يحزب الدرس اللغويّ منها.

ولن أزعجك فأقول: إنّ «الجامعة» غريبة عنّا، ذلك أنّنا في سائر ثقافتنا المعاصرة لا نعوّل إلّا على كلّ ما هو غربيّ. ومن هنا كانت غربيّتنا المعاصرة شيئًا جديدًا تزخر موادّها بكلّ غريب جديد.

إنّ «الجامعة» مادّة عربيّة سعينا أن تكون مقابلًا مكافئًا لما عند الإنكليز وغيرهم في كلمة «University». إنّ هذه الكلمة الإنكليزيّة بُنيت على أخرى هي «Universe» وهذه الأخيرة تعني «الكون» في العربيّة، و«الكون» جامع لما فيه من الأشياء والظواهر. ولكنّنا حين ترجمنا الأولى لم نقل مثلًا «كائنة» لبعد هذه الكلمة عن «الجمع والإحاطة»، بل قلناه «جامعة» وأطلقناها فصارت كأنّها عربيّة النِجار، وما هي بذاك.

قلت: إنّ دأبنا هذا في سائر ما يحزبنا من مفردات الحضارة الجديدة، ونتجاوز مادّة الحضارة الجديدة إلى ما هو من شؤوننا العامّة، فلغة العلم ولغة الحياة العامّة في الصحافة والإذاعة جديدة، بل قل: إنّ المادّة اللغويّة في البيت والشارع في المدينة والقرية والبادية قد تأثّرت بهذا الجديد الذي فرضته علينا الحاجة أوّلًا، وما أُصبنا فيه من الكسل والقعود اللذين ولّدهما فينا الانبهار بكلّ ما هو غربيّ برّاق.

هذا هو أمر «الجامعة» التي أخذناها ترجمة ولم نسعَ إلى اختيار كلمة عربيّة تؤدّي ما تؤدّيه الكلمة الغربيّة من حيث احتواؤها للعلوم والفنون.

لقد كان الأتراك العثمانيّون أسعد منّا حالًا، فلم يسعوا إلى الترجمة للكلمة الغربيّة، بل سعوا إلى لغة الإسلام، وهي العربيّة، فقالوا: «دار الفنون» لما كان يقابل الجامعة، وأسّسوها في القسطنطينيّة. لقد سعوا إلى العربيّة لأنّها لغتهم الثانية التي فرضها الإسلام، ولأنّ لغتهم التركيّة لم تسعفهم في توفير ما يحزبهم من أمور العلم والمعرفة. وشبيه بذلك ما صنع الإيرانيّون فقد أوجدوا كلمتهم الفارسيّة، ولم يحتفلوا بالكلمة الغربيّة.

ثمّ ماذا؟

لقد تجاوزنا «الجامعة» إلى غيرها من موادّ، وذلك أنّ «الجامعة» تتألّف منها معاهد للتعلم، وكلّ معهد أطلق عليه اسم «الكلّيّة». وليست الكلّيّة ممّا اجتهدنا فيه فابتدعناه، ولكنّه شيء اهتدينا إليه لنضعه مقابلًا لـ «College» الإنكليزيّة، وهذه الأخيرة هي التي امتحنتنا فسعينا إلى خطب ودّها فاخترنا ما يقابلها في العربيّة لاجتين إلى التوليد، ذلك أنّ «الكلّيّة» تفي بأصول الكلمة الإنكليزيّة التي تعني الكلّ والجمع ونحوًا من هذا.

لقد صنعنا «الكلّيّة» مصدرًا صناعيًّا حديثًا ليؤدّي ما تؤدّيه الكلمة الأعجميّة، فلم يكن لنا هذا المصدر من «كلّ»، ذلك أنّ الحاجة لم تكن فينا فنسعى إلى توليده.

ومن الطريف أن نعرض لشيء من هذا الجديد، وما كان له من دلالته القديمة إعلامًا للقارئ أنّ «جامعة» شيء جديد ولّدناه محتاجين مضطرّين أن نقابل به كلمة إنكليزيّة هي «University».

جاء في العربيّة القديمة:

أتانٌ «جامع» أي حملت أوّل ما تحمل.

وجَمَلٌ «جامع» وناقة «جامعة» أي أخلفا بُزولًا، ولا يقال هذا إلّا بعد أربع سنين.

ودابّة «جامع» تصلح للإكاف والسرج.

وقِدْر «جامع» و«جامعة» و«جِماع»، أي عظيمة.

و«الجامعة» الغُلّ.

ومسجد «الجامع» والمسجد «الجامع»[٥] لغتان، أي مسجد اليوم الجامع، وفيه يجتمع الناس لصلاة الجمعة وغيرها.

أكتفي بهذا القدر لأقول: إنّ «الجامعة» جديد مولّد، فرضته الحاجة

---

(٥) وذهب جماعة إلى أنّ «المسجد الجامع» من الخطأ اللغويّ.

إلى إيجاد مقابل في العربيّة للكلمة الإنكليزيّة.

ونحن في «الجامعة» محكومون بنظم ورسوم كلّها جديد، فألقاب هيئة التدريس العلميّة من المعيد والمدرّس والأستاذ المساعد والمشارك والأستاذ كلّها جديد، وُضع على مثال ما يقابله في اللغات الغربيّة. وقد تقول: إنّ المعيد والمدرّس والأستاذ شيء كان لنا في تُظُمنا التعليميّة القديمة، وهذا صحيح، غير أنّ ما لنا من هذه الألقاب في عصرنا لم نكن فيه قد أحيينا القديم الموروث، بل إنّنا ولّدناه على مثال ما عند الأعاجم.

ونأتي إلى عالم الشهادات فنجد: الدبلوم والليسانس والبكالوريوس والماجستير، والدكتوراه وكلّها أعجميّ جديد، وما زلنا نتخبّط في إيجاد ما يقابلها في العربيّة، ولئن كان طائفة منّا لا يهتمّهم هذا الأمر، ويحسبون أنّ الاحتفاظ بهذه الدرجات شيء ضروريّ جرى عليه عالم اليوم.

وليس الأمر كذلك، فكثير من الدول الغربيّة والشرقيّة، المتقدّمة والمتخلّفة، لا تحفل بهذه الرسوم الأجنبيّة بل اجتهدت أن يكون لها شيء خاصّ بها.

وربّما استقرّ في أذهان كثير منّا أنّ ما يُدعى «البحث العلميّ» شيء من ثمرات عصرنا الحاضر الذي أرسى قواعده الغربيّون.

لقد فات هؤلاء أنّ البحث العلميّ قديم، وأنّ الأمم كافّة شركاء فيه. ألم يكن الصينيّون واليهود والإغريق والعرب وسائر المسلمين من أهل البحث العلميّ؟ لقد كان دأب تلك الأمم القديمة في العلم سعيًا ومواصلة وتجربة في الوصول إلى الحقيقة. وليس لنا أن ننكر التألّق العلميّ الذي عرفه عصرنا، وما أبدعه أهل الغرب والشرق في الأعاجيب العلميّة التي ما تنفكّ تؤخذ بها كلّ يوم. إلّا أنّ هذا لا يحجب عنّا الحقيقة العلميّة القائلة: إنّ ما انتهى إليه المعاصرون من التقدّم العلميّ كانت له بوادر قديمة.

إنّ للحضارة الإنسانيّة مسيرة طويلة، ولا يحجب ألق عصرنا وبريقه

ما كان للقدامى من إشراقة علميّة شاركت في بناء هذا الصرح المعاصر.

أتحوّل بعد هذا إلى «التلميذ والمعلّم والمدرّس والأستاذ».

فأقول: أجتزئ ممّا هذه بـ«التلميذ» و«الأستاذ» وذلك لأنّ «المعلّم» و«المدرّس» معروفان، وقد كان لي أن عرضت للمدرسة. إنّ «التلميذ» مادّة قديمة ولّد منها الفعل «تلمّذ»، والفعل مصنوع. ذلك أنّ الثلاثيّ لا نعرفه في العربيّة وهو «لمذ»، وكأنّه نُسِيَ وهُجِر. غير أنّنا نجده في العبريّة לָמַד، وهو من غير شكّ في الأكديّة الآشوريّة. وعلى هذا فلم يوفّق البغداديّ في رسالته الصغيرة «التلميذ»[٦] لجهله بالأصول السامريّة.

وأمّا «الأستاذ» فهو معرّب قديم من الفارسيّة وهو «أُسْتَهْ»، وقد صرفه العرب إلى الموالي والعبيد إكرامًا لهم، ومن هذا كان قول المتنبّي «الملك الأستاذ» في قصيدة مدح بها كافورًا الإخشيديّ. وقد عُرِّبت الكلمة في الألسن الدارجة بـ«أستاد» بالدال المهملة. كما عُرِّبت بلفظ «أُسْطَه». وفي عاميّة العراق «إسْتَهْ» للمرأة الخيّاطة، وهذا طريف.

وقد يكون لي أن أقتصر في هذا الموجز على ما تيسّر لي.

---

(٦) رسالة التلميذ للبغداديّ (ط. الخانجي بمصر) في مجموع من «نوادر المخطوطات» نشرها وخفّفها عبد السّلام هارون.

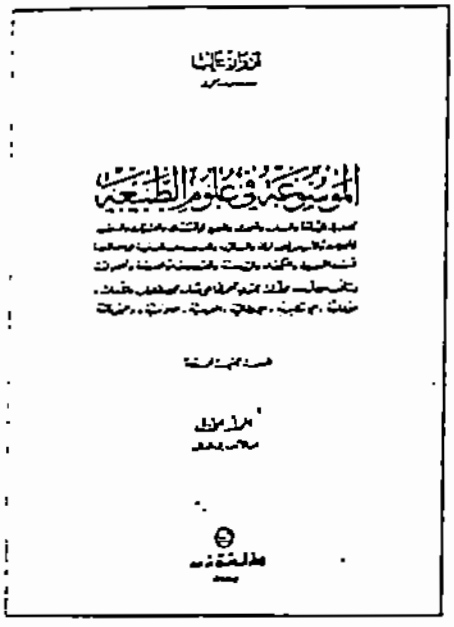

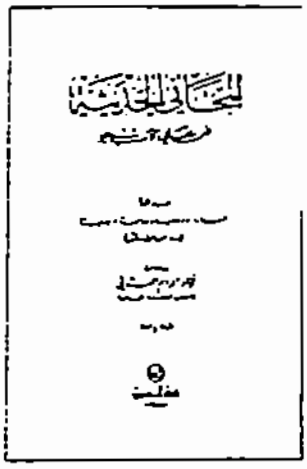

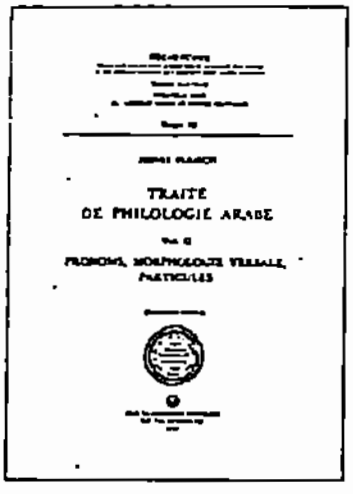

من منشورات دار المشرق